جريح على الشاطئ

فى صبيحة اليوم التالى لانفجار شاحنة البترول وعلى صفحة الماء . . بقايا مأساة الأمس . . بقع من البترول تغطى أجزاء منه، وألواح خشبية متناثرة هنا وهناك وزوارق مطاطية تمزقت واحترقت . . كأنها معركة انتصرت فيها الطبيعة وتركت فى ساحة الصراع أدلة انتصارها .

ومن بين هذه البقايا لوح خشبى كبير غفل عنه رجال الإنقاذ وعلى ظهره جسد ممدد تتشبث يداه بأطرافه ويتجمد عليها لأنه الأمل الوحيد لإنقاذه، وتتقاذفه الأمواج حتى يلقى به اليم على ساحل سيناء ويدفعه بعيداً عن الرمال . . وتمر بالقرب منه سيارة بها بعض رجال الدين والكهنة من دير سانت كاترين الذين كانوا عائدين من مهمة دينية لدى تجمع سكنى من بدو سيناء . . ويشاهد السائق اللوح بمن عليه فيخبر من معه . . ويتقدمون نحوه ويتفحصونه . . فإذا هو جريح وجراحه بالغة والنار شوهت أجزاء كثيرة من بدنه ووجهه . . ولا يستطيع الحركة أو الكلام ويهذى بألفاظ لا تعبر عن شيء ولا تدل على معنى .

وبدافع الرحمة والعطف يأخذونه معهم إلى الدير . . فليس لـه مكان سواه . . ولو ترك لمات فى موضعه والتهمته حيوانات الصحراء التى تنطلق فى الليل باحثة عن طعام لـها .

وفى داخل الدير المنحوت فى الصخر وداخل حجرة مضاءة بالشموع يرقد الجريح . . ويفحصه طبيب من الرهبان ويعطيه بعض الدواء، ويخبر مَن معه أن حالته خطيرة وهو محموم يهذى ومن الخير أن يعالج ويبقى عندهم حتى يفيق

وتتحسن حالته ونعرف شيئًا من أمره . . فربما فضّل البقاء معهم إلى النهاية فليس لمثلـه مكان إلا هذا الدير .

وتمر أيام ويفيق المريض من ذهولـه ويتماثل للشفاء ويعرف الرهبان أن اسمه جابر عبد الخالق ويعمل فى البحرية المصرية وقد انفجرت به شاحنة بترول ولم يستطع النجاة مع زملائه . . وقبل أن تغوص فى الماء تمكن من التعلق بهذا اللوح الخشبى ولم يعلم شيئًا بعد ذلك . . حتى وجد نفسه فى هذا الدير وهو يدين بحياته لـهم . . ولولا إنقاذهم لـه لكان فى عداد الأموات .

وشاهد سلوك الرهبان وزهدهم فى الحياة وعباداتهم وصلواتهم . . إنهم واحة أمن وقداسة فى هذا المكان الطيب الذى عظمه الله من طور سيناء . . وأنس إلى بعض الرهبان فجالسه كثيراً وحدثه عن ماضيه وأسرته وحبيبته . . وأنه مازال يحبها ويود الزواج منها . . فهل يتبدل حالـها بعد أن تشاهده فى هذه الصورة المنفرة التى يكاد يهرب منها الجميع . . ويجيبه الراهب بأنها ستقبلـه ما دامت تحبه لذاته وشخصه ولن يغير هذا من أمرها شيئًا . . وأنه أخطأ معها فيما ارتكبه قبل رحيلـه وكان عليه أن يتمسك بالعفة حتى يتزوجا دون أن يرتكب معها وزراً لا يعرف هو نتائجه الآن .

ثم قال له : عليك يا بنى أن تستغفر ربك فقد يجمع الدهر بينكما وليس بين البشر من يعيش بلا خطيئة . . وأظنك قرأت أو سمعت عن مريم المجدلية حينما أخطأت . . وثار عليها الناس ، فقال لـهم المسيح عليه السلام : مَن كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر . . فلم يفعل أحد . . والله رحيم يغفر الذنوب يا بنى فلا تقنط من رحمته .

واندملت جراح جابر تمامًا ولكنها تركت آثاراً فى جسده دون أن تترك آثاراً

فى نفسه . . فهو إنسان قوى لا تؤثر فيه نظرات الإشفاق التى يراها على وجوه الرهبان من حولـه . . وعرضوا عليه البقاء معهم . . ولكنه رفض وثار . . كيف يظل هنا ميتًا فى صورة حى بينما الوطن فى حاجة إليه . . وهل يرضى الله عنه إذا طلّق الدنيا وهو قادر على العمل ، أو عاش عالة ينتظر المدد والعون كشجرة اللبلاب المتطفلة . ولو عشنا جميعًا فى هذا الدير فمن يعمر الكون ويدفع العدو ويحفظ الجنس البشرى . . إنه يحس أنه قادر على فعل ما كان يفعلـه من قبل . . وصمم على ترك الدير . . وأوصلـه صديقه الراهب إلى أول الطريق الذى يؤدى به للإسماعيلية . . ولم تطل رحلته كثيرًا . ونزل قريبًا من البرج الذى يعمل به أخوه . . ووقف أمامه وعوامل كثيرة تتجاذبه . . لا يستطيع أن يستقر على واحدة منها . . هل تقبلـه آمال أم ترفضه؟ وما حالـها الآن ورأيها فيه؟ وأين أخوه ؟ . . أسئلة كثيرة وحائرة تعصف برأسه وتكاد أن تمزقه حتى إنه فكر فى العودة إلى الدير مرة أخرى ليضع حدًّا لآلامه ويعيش مع هؤلاء المنقطعين للعبادة الذين باعوا دنياهم فى سبيل دينهم حتى نهاية العمر .

واقترب منه رجل ممن يعملون فى هيئة القنال وشاهد حيرته وتردده . . ونظر إليه طويلاً ثم عرفه من عينيه وصوته وبعض الملامح التى مازالت تدل عليه . . وهتف بصوت عال : جابر عبد الخالق . . لقد ظننناك شهيداً من شهداء الباخرة ، وفقدنا الأمل فى العثور عليك . . أين كنت هذه الشهور؟ وماذا أصابك؟ لقد نَعتْك الصحف وأشادت ببطولتك . . وتقبلت أسرتك العزاء فيك . . وجذبه من يده فى فرحة وعارمه . . والتقيا بمنى التى سعدت بوجوده وعودته . بعد الدهشة القوية التى أصابتها . . فلم تتصور أبدًا أن يبعث الأموات ويعود جابر مرة أخرى . . وآلمها ما أصابه من تشوهات وجروح دون أن تشعره بهذا الألم .

وانفردت منى به فى مكتب منعزل وحدثته عن أحمد وآمال . . وكيف أنهما

تزوجا مداراة وسترًا وحفاظـًا على الوليد المنتظر منه . . وذلك بعد أن تأكدا من فقده وعدم العثور عليه من رجال الإنقاذ .

وأكدت لـه أن هذا الزواج لـه وضع غريب قلّ أن نسمع به . . فما زال كل منهما بعيدًا عن الآخر . . فرغم بعدك إلا أنك تقف بينهما بخيالك وذكرياتك . . فعد إليها بواقعك . . فآمال مخلصة لك ولن تضيق بك . . وأحمد سيسعد كثيرًا بعودتك .

وانتشر الخبر سريعًا فأقبل زملاؤه يهنئونه بسلامة العودة ولا يصدقون ما سمعوا وشاهدوا .

وأرسلت منى تطلب أحمد سريعًا لأمر عاجل . . لأن آمال غائبة لم تحضر إلى عملـها اليوم . .

ويحضر أحمد . وقبل أن يصل إلى منى . . يخبر زملاؤه بعودة أخيه . . ويقف مشدوهًا حائرًا . . ثم يندفع نحو أخيه يعانقه ويستفسر منه عما حدث ، وأخذ يهون عليه الأمر ، حتى اطمأن كلاهما للآخر فى أخوة صافية بريئة .

ولم يخف عنه شيئًا مما حدث ، وأن آمال مازالت فى انتظاره . . لقد تزوجها وديعة وأمانة ؛ لأن شيئًا ما فى أعماقه وأعماق آمال كان يحدثهما بأنه عائد . . وأقسم لـه أنه لم يعاشرها قَطّ معاشرة الأزواج . . بل كانت بالنسبة له كأخته وقال له مؤكدًا : إنها فى انتظارك الآن ، فهيا بنا إليها . . واليوم سأنهى ما بينى وبينها من شكليات رسمية لتعود إليك زوجًا وحبيبة ، وأمًا لأبنك الذى تنتظرانه .

قال جابر : ولكنك الزوج و . . وقبل أن يكمل حديثه أسكته أحمد وقال لـه : لقد طلقتها بينى وبينى نفسى ، وستطلق بعد ساعات بينى وبينها وبين

الناس، ولن تكون لغيرك أبدًا مهما كانت الظروف.

ويذهب جابر وأحمد ومنى إلى المنزل ويصعدون فى هدوء وتخبرها منى بأن ضيفًا عزيزًا يريد أن يراها.. وما إن تواجهه حتى تترنح من الصدمة.. وبعد أن تفيق من هول المفاجأة تصافحه مصافحة حارة.. فلم تنس أنها زوجة ولزوجها حق احترامه ومراعاة شعوره.. وينظر إليها أحمد من بعيد وهو يقول لقد عاد إليك جابر وغدا ستكونين لـه.. فما كنت إلا وديعة غالية حرصت على صيانتها وحفظها حتى يقدر الله ما يريد.. وقدَ قدر وأراد.

ولم تأبه آمال لما أصاب جابر فأقبلت عليه بكل الحب والشوق وعذاب الشهور التى مرت بها.

ولم تمض غير أيام قليلة حتى أنجز أحمد ما وعد به.. فأتم إجراءات الطلاق لتعود الحبيبة إلَى حبيبها.

وقبل أن يفعل ذلك استشارها فيما ينوى عمله وإن كان يدرك أن الأمر ليس فى حاجة إلى مشورة.

فلم يغب جابر عن آمال لحظة.. بل كان معها فى العمل والطريق وحجرة النوم.. وتحس أن كيانه كلـه يعيش فى أعماقها.. لم تصدق أبدًا أنه مات.. بل كان شعورها الخفى يحدثها بعودته مرة أخرى، وأنهما سيشهدان معًا ولادة ابنهما المنتظر.

ولأول مرة يخرجان معًا بعد عودته ويسيران فى الطريق الذى سارا فيه عشرات المرات.. وشاهد ولادة حبهما.. وكان ممسكًا بيدها ويخشى أن يضيع منها أو تضيع منه مرة أخرى.

ثم قال لـها : حينما كنت أعالج فى دير سانت كاترين ويطبق علينا الليل بظلامه وهولـه . . أراك الشمعة المضيئة أمامى . . يلتمس الرهبان الضوء فى الخارج بما يشعلون من قناديل . . وأراك فى داخلى قبسًا وهّاجًا قادرًا على أن يضىء كل شيء . . وفى يوم شاهدت فرحًا بدويًّا أقيم فى الدير تبركًا به فغبت عن حاضرى . . فتخيلت نفسى العريس وأنت العروس . . وعشت فى نشوة حالمة حتى انتبهت للواقع المر الذى يحيط بى . . لم تكن حياتى تساوى شيئًا من غيرك . . تمنيت الحياة لأسعد بك وأوفى بالوعد الذى قطعته على نفسى لأكون لك زوجًا . . وكم كنت أتعذب فى سبيل ذلك أضعاف أضعاف ما تتعذبين . . والآن حان وقت الراحة يا حبيبتى آمال .

openkandl.com